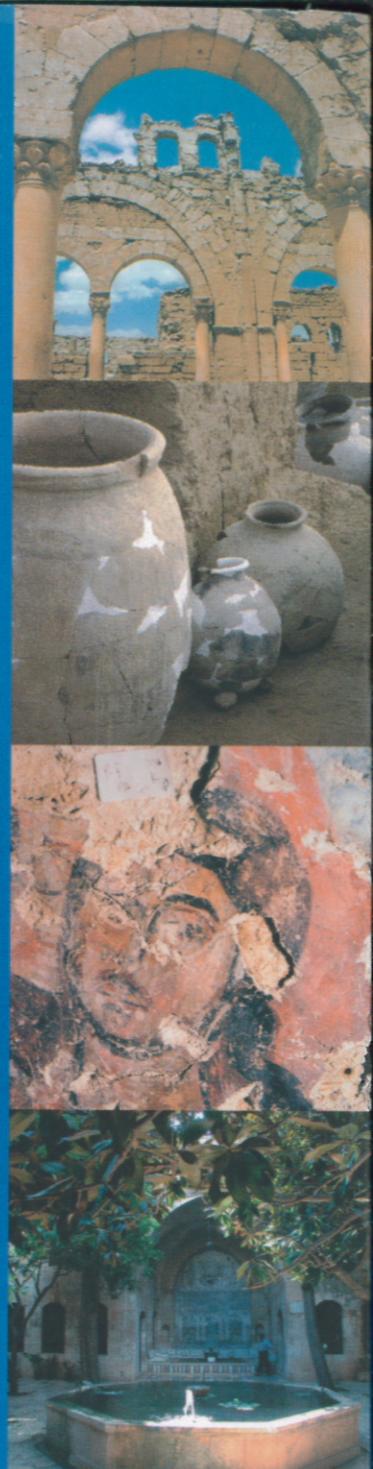


معهد الآثار الألماني

# أماكن وأزمنة

٢٥ عاماً من الأبحاث الأثرية في سوريا

١٩٨٠ - ٢٠٠٥



INSTITUTUM ARCHAEOLOGICUM GERMANICUM



الشكل (١) : دمشق ١٩١٨ ، صورة مأخوذة من جهة الشمال.

## دمشق - مجتمع حاضرة شرق أوسطية وبنيتها وعمارتها

٢. إعادة بناء المدينة بعد تدميرها من قبل تيمورلنك (١٤٠١). إصلاح الجامع الأموي، والتنظيم الجديد للأسوق وتطور الحي حول سوق القطن (تطور المدينة والتزيين المعماري).

٣. دمشق بعد الاحتلال العثماني في سنة ١٥١٦ (تطور المدينة والعمارة والتزيين المعماري).

٤. دمشق في عصر الإصلاحات العثمانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (التاريخ الاجتماعي والإداري وتطور المدينة والعمارة والتزيين المعماري).

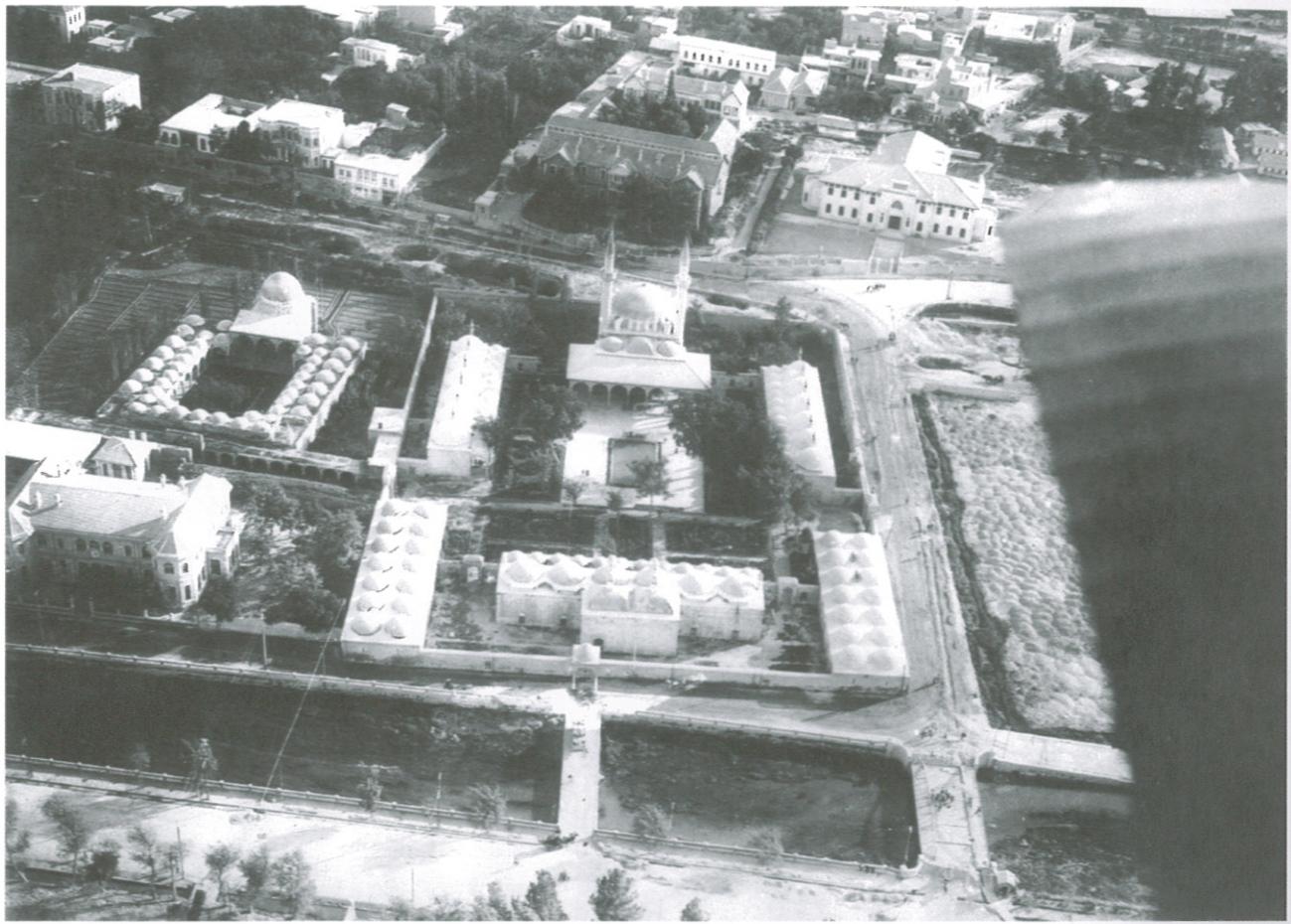
فتشكلت بذلك ثلاثة مجالات من الموضوعات:  
١. بني الأسواق وتطورها.

٢. التزيين المعماري في العصرين المملوكي والعثماني.

٣. تطور عمارة البيوت السكنية الدمشقية من أواخر العصر المملوكي وحتى ١٩١٨.

يشكل أساس البحث مسح مكثف للمباني المملوکية المتأخرة والعثمانية داخل وخارج السور، مع إضفاء اهتمام خاص بالمباني العثمانية الواقعة ضمن أسوار المدينة. ولدراسة المباني ميدانياً تم بالتعاون مع المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى (IFPO) بدمشق، نقل رقمي للسجل العقاري. احتل المركز الأساسي في التحليل مسائل المساقط الأفقية النمطية ومظاهر التزيين المعماري، ولا سيما في البيوت السكنية

دمشق، مركز سورية السياسي والثقافي في اليوم، لها، مثل الكثير من المدن الأخرى في المنطقة، تاريخ بارز من العمران والمدنية المدينة. دمشق مثل حلب واحدة من المدن الكبرى القليلة في منطقة شرق المتوسط، التي حافظت على نسيجها المعماري إلى حد بعيد (الشكل ١). وتبعداً لذلك سُجلت المدينة القديمة منها سنة ١٩٧٩ كأول موقع سوري في عدد قائمة اليونسكو للترااث العالمي. ترجع غالبية المباني في المدينة القديمة - ومن بينها سائر المباني التجارية والبيوت السكنية تقريباً - في شكلها الراهن إلى العصر العثماني. كانت دمشق بين ١٥١٦ و ١٩١٨ عاصمة ولاية سورية العثمانية (الشام السورية) وإحدى المراكز المدنية الأهم في الإمبراطورية. ما بقي محافظاً عليه من المرحلة المملوکية (١٢٦٠ - ١٥١٦) هو المدارس خاصة، إلى جانب أوابد من العهد الأيوبية (١١٧٦ - ١٢٦٠) والجامع الأموي الشهير (٧٠٦ - ٧١٥). إلا أن المسقط الأفقي للمدينة قد تطور عن الموروث الكلاسيكي القديم، وهو يفسح في المجال لإيساحات حول طرز العمran منذ أواخر العصور الكلاسيكية وحتى العصر الحديث. وتبعاً لذلك تُصنف الأبحاث حول دمشق في نقاط رئيسية تطرح تساؤلات مختلفة للمصامن وقديرات طرائقية مختلفة أيضاً:  
١. قصة إعمار سوق الصاغة إلى جانب الجامع الأموي، وسوق القطن في باب الحاوية (تطور المدينة من أواخر العصر الكلاسيكي وحتى العصر الحديث).



الشكل (٢) : التكية السليمانية (٩٦٢ / ١٥٥٤ - ٩٦٧ / ١٥٦٠ ، إلى اليمين) والمدرسة السليمانية (٩٧٤ / ١٥٦٦ - ٦٧ ، إلى اليسار في الأعلى)

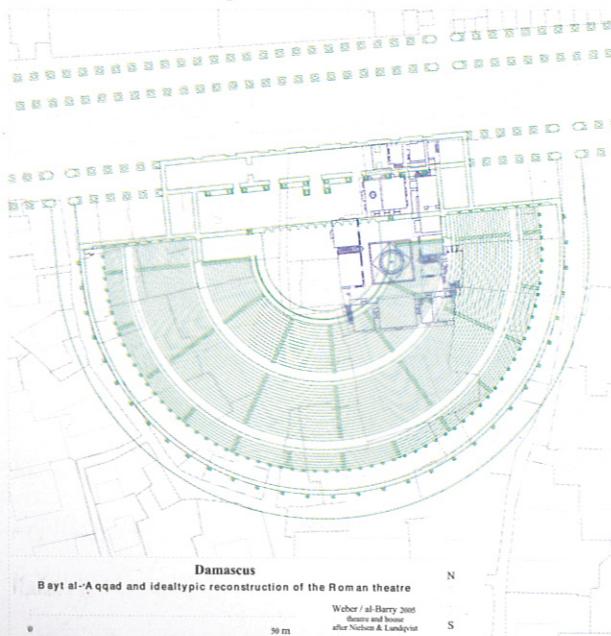
الوطني السوري (مركز الوثائق التاريخية بدمشق)، وكل ذلك يشكل جزءاً مهماً من الأبحاث. علاوة على ذلك استفید من الصحف والترجمات المحلية واليوميات والتقارير الإدارية (سالنامه) وأدب الرحلات وتقارير القنصل.

يمكن تلخيص نتائج الأبحاث المطروحة هنا على النحو التالي: السوق في دمشق قبل الاحتلال العثماني: ثبت أبحاث سوق الصاغة (سوق الذهب) وسوق القطن (سوق تجار القطن) بالنسبة لكلا المجالين تطورات متماثلة. حسب الفرضية المطروحة

والمباني التجارية. تركزت دراسات التزيين المعماري على التلبيس بالأخشاب، وموzaïek المعاجين الملونة وأعمال حفر الحجر واللوحات الجدارية. حدد مفهوم الحضارة المادية كمنتج تاريخي للتنظيم والفعالية الاجتماعية. وكان الهدف هو فهم الاستمرارية الحضارية وتحول المجتمع الدمشقي على أساس مخلفاته المادية. تبعاً لذلك فإن تقييم المصادر المكتوبة ومراجعة الدعاوى القضائية (سجلات المحاكم الشرعية) ومستندات الأوقاف (الوقفيات) للأرشيف

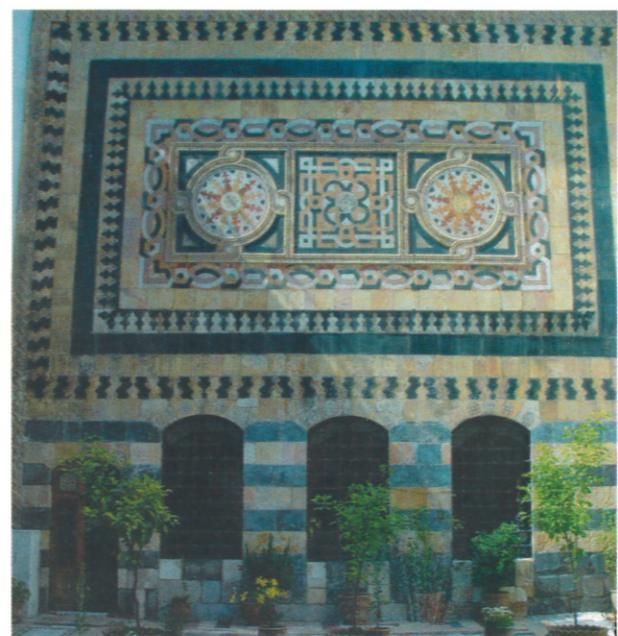
(Decumanus) إلى سوق قد أنجز بصورة مكثفة من خلال بناء الدكاكين على أبعد تقدير في القرن الثاني عشر، وثمة تطورات موازية في المنطقة تدل على أن ذلك قد حدث إبان عهد الأمويين. بعد الاجتياح المغولي والتخريب من قبل تيمورلنك في سنة ١٤٠١ تغيرت بنية كلا المدينتين بصورة واسعة. سمحت لنا أبحاثنا في بيت العقاد، وهو حالياً المعهد الدانمركي، (الشكل ٣، ٤) بالارتباط مع سجلات المحاكم الشرعية والملاحظات حول البناء بالتوصل إلى استنتاجات هامة حول البيت السكني المملوكي. صحيح أنه وجدت أشياء في تطور المباني السكنية اللاحقة في دمشق، تمثلت في عناصر معمارية وحجوم أساسات مجهولة إلا أن العناصر الأساسية للبيت السكني في المرحلة العثمانية كانت قد بدأت.

**القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر:** بدايات دمشق العثمانية. طورت بداية دمشق "العثمانية" مباشرة



الشكل (٤): بيت العقاد وإعادة تصميم بنية المسرح الروماني

أمكن إثبات أنه على أساس البنية الكلاسيكية للمدينة (هذا المنطقة المقدسة حول المعهد والشارع الرئيسي الذي يمتد من الغرب إلى الشرق) قد تطورت في عهد الأمويين وجزئياً في العصر البيزنطي بني ما تزال مهيمنة حتى اليوم. وهكذا ربما نشأ في نطاق المنطقة المقوسة حول العبد (Peribolos) منشأة بيزنطية وأموية حل محله قصر الخضراء، قصر معاوية بن أبي سفيان (٦٦١/٤١ - ٦٨٠/٦٠). تورثت هذه الوظيفة جزئياً حتى العصر العثماني مع المباني اللاحقة، إلا أن قسماً كبيراً من المنطقة اكتسب طابعاً تجارياً عند منعطف القرن الحادي عشر إلى الثاني عشر، ومن ضمنها سوق الصاغة أيضاً، الذي بقي في ذات الموقع حتى القرن العشرين. يبدو أن المسرح الكلاسيكي، الذي توجد بقاياه في بيت العقاد (الشكل ٣، ٤) لم يستخدمه حتى العصر المملوكي أو أنه قد اندرج في بناء لاحق. بالمقابل كان التطور المستمر للشارع الرئيسي



الشكل (٢): بيت العقاد، واجهة القاعة المملوكية، حوالي ١٤٦٠ / ١٤٧٠.

القرن السادس عشر طراز محلي عثماني نوعي في دمشق. لم يبق من هذا الزمن إلا قليلاً جداً من البيوت السكنية، إلا أن البيوت القليلة أو بقايها تثبت استمرارية العمارة العربية للبيت السكني، حيث أدخلت فيه تقنيات تزيين مملوكة وطُورت. وبتأثير من التقاليد المحلية ومواد البناء المتوفرة، تطورت عناصر معمارية - مثل صالة الاستقبال الفاخرة (القاعة) - وكان هذا التطور متبايناً محلياً. تشابه قاعة العمادي التي تعود إلى مطلع القرن السابع عشر صالات الاستقبال المصرية بشدة، وتختلف في التصميم والتزيين بجلاء عن الصالات في شمالي سوريا وفي لبنان. وصل تطور البيت السكني اعتباراً من النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى صيغة نمطية، لم تتغير إلا بشكل طفيف حتى القرن التاسع عشر.

ازدهار الفن المعماري المحلي في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر: تحدد التطور المدني في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر بشكل رئيس من خلال ملوكين من النخبة المحلية. انحدر هؤلاء النبلاء المحليون الأكثر أهمية من آل العظم، الذين عُين منهم ما بين ١٧٢٤ و١٨٠٨ العديد من الأعضاء وحتى الحكام على دمشق. فقد أقاموا في مركز المدينة التجاري مقرات فسيحة، وحانات فاخرة وحمامات ومدارس لكنهم لم يبنوا أية مساجد. سائر هذه المباني، التي انسجمت مع طراز العمارة والنماذج العثمانية أو تباينت عنها، تميزت في تزيينها المعماري من خلال صبغ وتقنيات، يمكن اعتبارها كطراز محلي صرف. شكلت أوج هذه العملية حانات سليمان باشا (الشكل ٥) وأسعد باشا العظيم. اتبع هذا الأخير بأعمدته العملاقة الأربع وقبابه السبع مخطط الحيز العثماني المثبت

بعد إلحاقها بالإمبراطورية العثمانية، برناماً معمارياً، غنياً، أضافى على دمشق وجهاً جديداً في بعض المجالات. يمكن تحديد نقطتين أساسيتين في التطور المدني: البazar وشارع الدرويشية. أقيمت على امتداد شارع الدرويشية، المحور الشمالي الجنوبي الأكثر أهمية والتحويلة الغربية، في غضون القرن السادس عشر العديد من المساجد والحمامات والأبار وقصر جديد للحاكم (سرايا). مثلت للعيان بصورة شديدة الجلاء في هذا الشارع الهام التبعية للإمبراطورية العثمانية، التي كانت في أوج سلطتها كدولة مركبة. أدى الدمج في منطقة السيادة الشاسعة إلى ارتقاء اقتصادي، تجسد في المباني التجارية للمدينة. وقد استثمر الحكام أموالهم في غرب وجنوب غربي الجامع الأموي في مبانٍ تجارية، وشكلوا بذلك مركزاً تجارياً جديداً للمدينة.

بدأ هذا التطور موظفون كبار ووجهاء، إلا أن المباني الأكثر أهمية في ذلك العصر كانت في الأصل وقفيات، خلفها الحكام أو السلطان نفسه. وبذلك انتقلت تصاميم العمارة العثمانية. فكان الجامع الأول مع قبة مركبة، وهي السمة النموذجية للعمارة العثمانية، وقد كُلف بإنشائه أحد العلامات الدمشقيين، وكذلك مدارس وخانات انسجمت منذ الآن مع مبادئ التشكيل التي كانت معروفة في اسطنبول والأناضول ومنطقة البلقان العثمانية. وهذا ينطبق وخاصة على البناء الأكثر عثمانية في المدينة، تكية السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، ووُجدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر عناصر كثيرة من التزيين المعماري العثماني طريقها إلى دمشق (الشكل ٢). وقد امتزجت هذه مع التزيين - وتقنية البناء المحلية. ثم تطور اعتباراً من أواخر



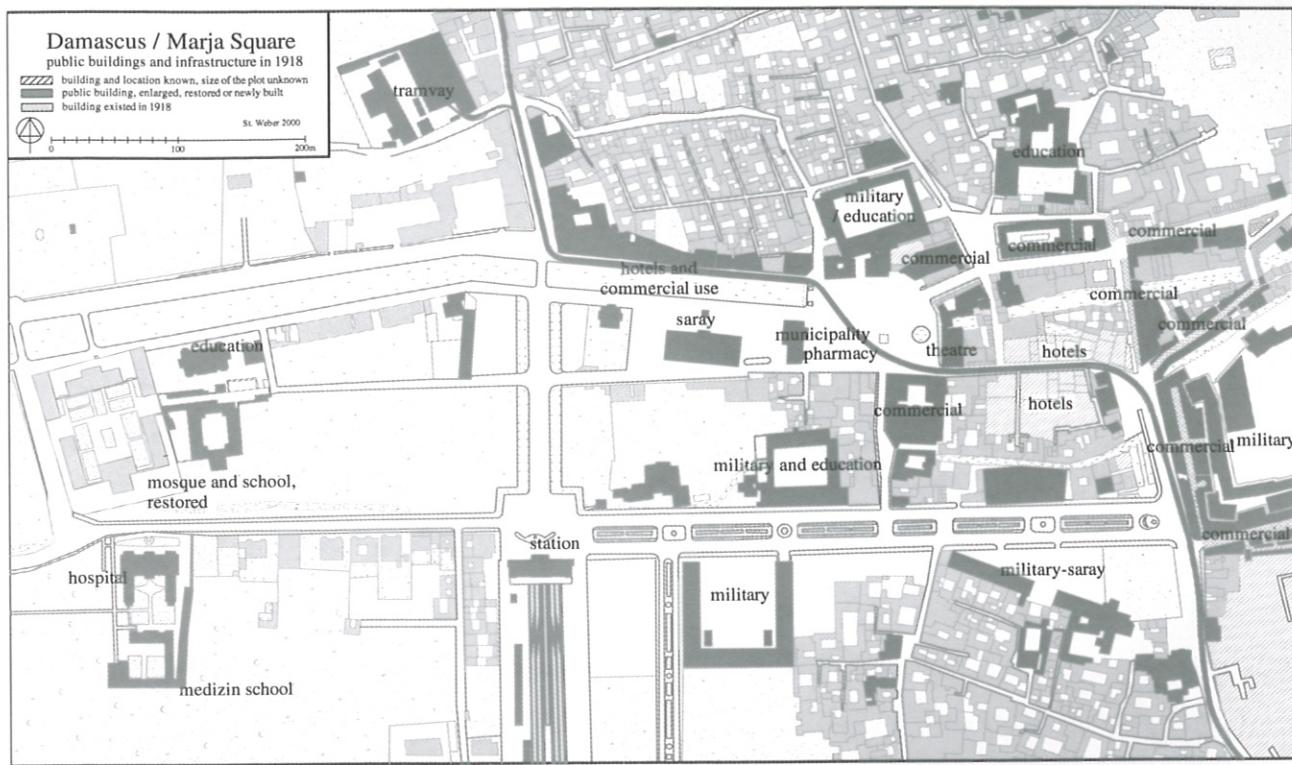
الشكل (٥): خان سليمان باشا العظم، ١١٤٥ - ١٧٣٢، الحالة حوالي ١٩٢٠.

ويرجع إلى هذه الهيئة من المنتخبين الدمشقيين الكثير من المشاريع الكبرى. فنشأ ما يزيد عن سبعين مدرسة، ثمانية مستشفيات ومستوصفات وأربع محطات قطار وبنية تحتية تشمل المدينة بالكامل. وعلى مسافة قريبة من شارع الدرويشية تطورت ساحة المرجة (الشكل ٦) مع العديد من المباني الخاصة بالإدارة (المجلس البلدي والمحكمة ودائرة السجل الأساسي وغيرها)، وحدائق المدينة والفنادق والملاهي ومسرح، لتصير مركزاً جديداً للمدينة. بالتوازي مع ذلك جرى تحديث محلل البازار تقريباً في دمشق، وتوسيع أزقة البازار الضيقة آنذاك إلى شوارع تسوق عريضة، تذكر بال محللات الأوروبية المعاصرة لها. كان الإجراء المعماري الأكثر أهمية في البازار المحدث هو سوق الحميدية الذي يبلغ طوله ٤٥٠ م، والذي أقيم على مرحلتين من قبل مجلس المدينة في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر. شكل الأشخاص أنفسهم، الذين اشتغلوا في تحدث البازار، بيوتهم السكنية أيضاً تبعاً لأفكار ونمذاج جديدة. فُعدلت

منذ القرن الخامس عشر بـ غالاتا بيدستن في إسطنبول. وقد عُرِّفَ هذا في السياق الدمشقي بصورة واسعة جداً، ونقل إلى طراز الخان. يتبَع تنظيم الحيز الداخلي هنا للنمذاج العثمانية، إلا أن السمة المحلية لهذا البناء تبرز من خلال التركيز على الأشرطة (المداميك) الأفقية في الواجهة (الأبلق)، والتي لا توجد في إسطنبول. يمكن غالباً أن يتحقق تناسب بين الانحدار السياسي والثقافي المتصور للإمبراطورية العثمانية وبين ما يحدث في عاصمة الولاية العربية. ليس فقط المباني التجارية الضخمة والمدارس والحمامات، وإنما أيضاً العدد الكبير من المقرات المفروشة بأبهة، كانت مؤشراً على عصر ازدهار دمشق في القرن الثامن عشر. فقد تبلور بذلك نموذج مسقط أفقى، امترجت فيه دوماً عناصر متفرقة بصورة متباعدة، لكنها اتَّخذت طابعاً موحداً، الأمر الذي تبَثَّه الأمثلة المتبقية من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر بالنسبة للعصر العثماني الباكر. إن أغلب البيوت من تلك السنوات تظهر فيها أعمال تلبيس بالأخشاب الملونة (عجمي)، وتزيين غني بالعجبينة الملونة - وهي تقنية دمشقية. يمكن أن يثبت تبادل مباشر مع إسطنبول في بعض الزخارف، إلا أن التزيين المعماري قد تطور محلياً وبلا تأثيرات غربية إلى حد بعيد.

### القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين: تحدث عاصمة ولاية عربية

في إطار برنامج إصلاح وتحديث واسع للدولة العثمانية تغيرت دمشق كذلك تغيراً كبيراً، وبخاصة بعد الإصلاحات في الولايات سنة ١٨٦٤، فدمج مجلس المدينة في البنى الإدارية للولاية لتولد من ذلك مؤسسة لتنظيم المدينة.



الشكل (٦) : ساحة المرجة، إعادة تصميم وضعية ١٩١٨.

الحياتية الخاصة واقتفت الملابس والمفروشات الداخلية الموديلات الخارجية من اسطنبول وأوروبا. تُقدم الصور الجدارية بخاصة ، التي كانت تزين الجدران الدمشقية اعتباراً من مطلع القرن التاسع عشر، انطباعاً حول خبرات الدمشقيين العالميين. فإلى جانب مناظر المدن مثل اسطنبول، وباريس، صارت خاصة رموز العصر الحديث (خطوط التلغراف والسفن البخارية إلخ...) موضوعات للوحات، وحتى الطائرة الأولى، التي هبطت سنة ١٩١٣ إلى جانب التكية السليمانية (الشكل ٧)، وجدت صداتها في أحد البيوت السكنية الدمشقية.

اشتيفان فيبر

سائر البيوت المدرستة في القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين، أو أعيد بناؤها. لاحظ المفترش المعماري في مجلس المدينة سنة ١٨٩٥ ، أنه بُني في تلك السنة ٣٥ بيتاً، وتم تعديل ٥٢٧ بيتاً. ورافق ذلك إدخال تقنيات تزيين وأشكال جديدة من اسطنبول، حل محل سابقاتها المحلية بصورة تامة. كما جرى تحويل المسقط الأفقى للبيت العربي ذي الفناء أيضاً، وأدخل الى (Konak) الأناضولي كنموذج بناء سكني جديد تماماً إلى دمشق. أمكن في العديد من الحالات المدرستة، مثل بيت القوتلي أو بيت يوسف - بالاعتماد على تعديلات البناء في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إثبات أن عملية التحديث تغلقت في العالم

**المراجع:**



الشكل (٧) : صورة جدارية في بيت دمشقي عريق؛ طبارة تهبط قرب التكية السليمانية.

المشاركون في التعاون:

- المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية.
- IFPO - المعهد الفرنسي للشرق الأدنى (التسجيل الرقمي للسجل العقاري).
- المعهد الدانمركي / معهد كارستن نيبور (بيت العقاد).
- الجامعة التقنية برلين (سوق الصاغة).
- معهد الاستشراق بيروت.

ثبت بالأشكال:

الشكل (١) : الجامعة التقنية في درسدن.

الشكل (٢) : المعهد الفرنسي لدراسة آثار الشرق الأدنى، ١٩٣٥.

الشكل (٣) : فيبر، ٢٠٠٢.

الشكل (٤) : فيبر - البري، ٢٠٠٥، المسرح والبيت تبعاً لهيلسن ولوندكسن.

الشكل (٥) : آغا خان، مكتبة الفنون الجميلة، هارفارد.

الشكل (٦ - ٧) : فيبر، ٢٠٠٠.

S. Weber, The Creation of Ottoman Damascus, Architecture and Urban Development of Damascus in the 16th and 17th centuries, ARAM 9–10, 1997–1998, 431–470.

Ders., Der Marğā-Platz in Damaskus – Die Entstehung eines modernen Stadtzentrums unter den Osmanen als Ausdruck strukturellen Wandels (1808–1918), Damaszener Mitteilungen 10, 1988, 291–344, Taf. 77–88.

Ders., Images of Imagined Worlds, Self-Image and Worldview in Late Ottoman Wall Paintings. In: J. Hanssen – T. Philipp – S. Weber (Hrsg.), The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire, BTS 88, 2002, 145–171.

Ders., An Egyptian qa'a in 16th ct. Damascus, Representative halls in late Mamluk and early Ottoman residential architecture in Syria and Lebanon. In: K. von Folsach – H. Thrane – I. Thuesen (Hrsg.), From Handaxe to Khan, Essays presented to Peder Mortensen on the Occasion of his 70th Birthday (2004) 265–296.

Ders., The Reshaping of Damascus, Architecture and Identity in an Arab-Ottoman City. In: T. Philipp – C. Schumann, From the Syrian Land to the States of Syria and Lebanon, BTS 96, 2004, 41–58.

Ders., Walls and Ceilings. In: J. Carswell (ed.), The Future of the Past. The Robert Mouawad Private Museum (2004) 242–265.

P. Mortensen (ed.), Bayt al-<sup>c</sup>Aqqad: History and Restoration of a House in Old Damascus, Proceedings of the Danish Institute in Damascus, No. 3 (2005).